قصة تقليدية

تصك بقلم أمين الخليشي

ـ هل تراها ؟
ـ نعم .
ـ هل ترى البغلين اللذين بقرب البئر ؟
ـ نعم .
ـ انهما يحملان الماء اليها .
ـ ولم الماء ؟
ـ ليعجنوا به الخبز ويغسلوا الذبيحة .
ـ دار كبيرة .
ـ هكذا نراها .

كان ذلك في يوم قائظ من ايام الصيف ، بياض الشمس يقع على الحقول المحصودة فيحولها الى مرايا ، وهم في الطريق الى القرية المجاورة لحضور جنازة امرأة ما .

ـ فمتى يصل ذلك اليوم ؟ أم سيأكلنا الدود قبل ذلك ؟.
ـ لا .
ـ أمه ايضا تريد ان تراه قاضيا ، اما انا فكل همي ان اراه عالما كبيرا ، سأحفظه الالفية والحديث وسيدي خليل ليكون بحول الله مالك هذا العصر . حكت لي أمه اخيرا انها رأت في منامها ان..

اقتربوا من دار الجنازة ، سحب العم يده من فوق رأس خيرون (*) . الوصول الى الدار من الجهة الملائمة يتطلب منهم ترك الطريق التي ظلوا يمشون فوقها حتى الان الى طريق اخر . قصدوا اليه . هي ذي باب الدار . تحت لوزة كثيفة الاغصان ، قبالتها تجمع نفر من الرجال . بالقرب منهم ، قرب مزبلة ، بعض النساء.رد الرجال على تحية القادمين . وقفوا معهم . ابصر خيرون رجلا قصيرا ، ابطن، تلف رأسه عمامة بيضاء ، يخرج من باب الدار ويتقدم منهم . التفت الاب والعم نحوه وصافحاه . قالا له ذلك الكلام الذي يقال في هذه المناسبات . اطرق الرجل برأسه الى الارض وظل صامتا . ظل صامتا حتى خيل لخيرون انه ابكم . ولكنه فجأة اخذ يتكلم :

ـ الاعمار بيد الله . الحمد لله . الحمد لله على أي حال . قلنا مرض عابر ولكن الرب اختارها الى جواره . دفناها قبل ساعة ..

تبادل العم والاب نظرة وبدا كما لو انهما يريدان قول شيء، لولا ان الرجل تابع :

ـ انتظرناكم ثم خفنا ان تؤخركم ظروف . حقيقة نحن ناسف لعدم حضوركم ، انما دائما هناك ظروف ..

ثم وضع يده على رأس خيرون واضاف :

ـ ابن من ؟

بينما كان أبو خيرون يجيب الرجل ، كان خيرون يحس بشيء ثقيل فوق رأسه ، ولكن ماذا بامكانه ان يفعل ؟

ـ تفضلوا الى الداخل . الطلبة في انتظاركم .

تخطوا عتبة الباب وعبروا فناء واسعا يتقدمهم الرجل حتى وقف بهم على عتبة باب غرفة غصت بالرجال . حتى ان خيرون دهش لعدد احذيتهم الموجودة بالباب . نظروا كلهم صوب الداخلين ولكن بعضا منهم فقط رد على تحيتهم . ما ان افسحوا لهم امكنة للجلوس حتى رفع احدهم يديه واضعا اياها على اذنيه ، مغمضا عينيه وصائحا باعلى صوته مستعيذا بالله من الشيطان . لحظة وكان الجميع يرددون معه آيات السورة التي حط عليها ، طه . كانوا يقرأون باصوات عالية ، يميلون رؤوسهم في كل الاتجاهات ، تنفتح افواههم عن آخرها فتبدو عذبات السنتهم منتصبة كرأس افعى . مع تسلسل الآيات ، ظن خيرون انه يكتشف امرا عجيبا : ثم دبيب منافسة بين الحاضرين ، منافسة مخفية لكن عنيفة كنار تحت الرماد فيمن منهم يملك اعذب الصوت واشد الحنجرة . فكل واحد يريد انتهاز الفرصة مجربا مالديه من الحيل حتى يغطي صوته أصوات الاخرين او على الاقل كيلا تغطيه هي . اطربه الاكتشاف فركز سمعه ونظره عسى ان يتوصل الى معرفة الافضل ، وسيخبر اباه بهذا حالما تتاح له الفرصة . واذا بلكزة تأتيه في جنبه ، لكزة تعقبها نظرة (وكلاهما من عند أبيه) يدرك معانيهما جيدا . وعندئذ فقط تذكر وصية أبيه وهما واقفان بحذاء جدار الضريح ينتظران قدوم العم : اقرأ باعلى صوتك حتى لايشكوا في حفظك له (القرآن) . تنفس ثم دفع الهواء من رئتيه بشدة فانطلقت صوته على الفور حادا ناشزا وسط ذلك الخليط من الاصوات . وقد بذل كل جهوده ليحافظ على حدته الى النهاية . وكان يفكر وهم يدنون من نهاية السورة فيما اذا كانوا سيتوقفون عند النهاية ام سينتقلون الى السورة التالية . انمحى السؤال من ذهنه بعد ان رددوا السورة احدى عشرة مرة . آه على تلك الادعية . هو وحده الذي لم يكن يحفظها . لم يحفظه اياها ابوه قط . هو المذنب ، أبوه. ورغم انه لم يكف طيلة الوقت عن تحريك شفتيه ، مقلدا حركات شفتي وجه يقابله لحيته كالثلج ، فقد اجتاحته رغبة حادة الى التبول . اما الوقت الذي استغرقته تلك الادعية ، فقد بدا له كأنما هو اطول واثقل شيء يمكن ان يوجد في هذه الدنيا .

(*) خيرون ، شخصية يتتبع المؤلف تطور حياتها وحياة البيئة التي تعيش فيها في أقاصيص مختلفة .

احان وقت الاكل ؟ رمى الفتى الاحول الذي اقتحم عليهم الغرفة بالمناشف الىوسط الحلقة وجعل يطوف على الحاضرين بالطست والابريق . ذهب الطست والابريق . دخلت اطباق الخبز ، توزع الناس الى مجالس ، اللحم بالبطاطيس ، كل ولا تحشم ، الخبز حار والمرق مثله او اشد ، كل ولا تحشم ، خذ هذه اللحمة ، لماذا لاتزيد هذه ؟ اكلت مافيه الكفاية ، كل وأسكت ، هيه ، الماء ، أين الماء ؟ هذه الشحمة ، زدها ، لاأقدر ، لاتقل لا أبدا ، زدها ، الا تسمع؟ ساتقيأ . لا . هكذا . انت لاتاكل شيئا فكيف تريد ان تكبر ؟ آخ ، نعذبك ياولدي ؟ اذهب ، لاحاجة الى ذلك . من يقيم الشاي ؟ اعط ارفع ، الحمد لله ، الله يخلف ويغفر ، اتغسلون ايديكم ؟ ماذا ؟ ولماذا للسبي عبد النبي فهو يعرف له ، كيف تريدونه ياناس ؟ قوي ، كيف حال ابنك ياحاج ؟ عافاه الله ، ما احر هذا الصيف . ماذا ؟ ما احر هذا الصيف . آه ، من يبقي زيادة ، طيب ، ارفع ، الله يجعل البركة ويخلف ويغفر لنا ولوتانا .

دخل زوج المتوفاة وقال :

ـ سادتي الطلبة ، أريد ان تقرأوا سلكة على المرحومة ، عليها وعلى والدي وعليّ انا ايضا .

قال الذي وضع يده على اذنه في اول الامر :

ـ على الراس والعين . ثم وقف وجعل يعد الحاضرين .

قال الاب مجيبا على سؤال الرجل :

ـ تسعة عشر .

ـ لا ، ثمانية عشر فقط . رد احدهم من زاوية .

ـ وهذا ؟ (قال الاب ذلك وامسك بكتف ابنه) ، هذا ، حسبته اولا ؟

ـ هل يحفظ القرآن ؟

ـ هل يحفظ القرآن ؟ طبعا يحفظه . وهل كنت لاصطحبه معي لو لم يكن يحفظه ؟.

لم يجب الرجل ، ولكن آخر علق :

ـ انه يبدو صغيرا جدا .

ـ صحيح ، ولكنه مع ذلك يحفظ القرآن . ها هو ذا امامك ، اسأله فيما تريد .

لم يعقب الرجل بشيء ، التقت عينا خيرون بنظرات عمه فابتسم له العم بلطف ، عاد الاب يقول :

ـ ها هو ذا امامك ، هيا ، اسأله ، لماذا لاتسأله ؟

كان العم لايزال ينظر الى خيرون ويبتسم بلطف .

ـ لن أسأل احدا . افعلوا ماشئتم .

قال الرجل الواقف :

ـ خلاص ، ما دام يحفظ القرآن فهو معنا .

ثم جعل يوزع الاحزاب على الحاضرين .

خرج الرجل الابطن زوج الميتة . علت اصواتهم من جديد . فوضوية هذه المرة . وفكر خيرون : لا شك انهم في الخارج يسمعون اصواتنا بوضوح . العابرون من بعيد ، الواقفون تحت اللوزة ، النساء في الغرف الاخرى ... وتلك التي توفيت ، اتسمعنا ؟ بالطبع تسمعنا : الآن ، الملك منكر يقف في مواجهتها ، اكبر جبل في الدنيا يهوي غائصا الى قرار الارض تحت ضربة دبوزة ، يسألها : من هو ربك يا امراة ؟ والمراة تحس بعطش محرق ، وابليس الرجيم يلوح قبالتها ملوحا بابريق فيه سراب ماء يقول لها : قولي انا ربك اسقيك وانجيك ، قولي انت ربي ، فتهم بالهتاف : انت ربي ، اسقني ، ولكن في نفس اللحظة يصلها هذا القرآن فتجيب : لا ، الله هو ربي .. فيسالها نكير ، ذلك الملك الآخر ، وبيده ملقطه الناري الذي يستطيع ان يقتلع به الجبل الفائص ويعيده الى مكانه من ظهر الارض ، وما دينك يا امراة ؟ فيتمثل لها اللعين في صورة شيخ كثيف اللحية ، اصلع ، ويقول لها : قولي لا دين لي ، انقذك .. فتهم بقول ذلك ، ولكن هذا القرآن يصلحها فتجيب : لا ، الاسلام ديني .. فيتهيا الملك منكر .. ايه ، اين انا ؟ فجاة ، اكتشف ان تصوراته قفزت به الى حزب لا يمت بصلة الى الاحزاب المقررة له . ارتبك ، وارعبه ان يكون قد فطن اليه احد . اي فضيحة سيسببها لابيه آنذاك . تلفت حواليه وسرعان ما ادرك انهم غارقون في احزابهم وانهم في شغل عنه وان لا احد يفطن الى احد . وقال بعد ان تطلع الى وجهيهما ان اباه وعمه قد نسياه ايضا . فاطمان وبدا يبحث عن طريق العودة الى الاصل لولا ان فكرة سقطت على ذهنه فجاة : لماذا لا تواصل قراءتك للحزب الذي وجدت نفسك فيه ؟. ولكن في ذلك مخالفة لترتيب القرآن ، وقد يكتشفونني وفي ذلك فضيحة .. لا . لن يكتشفك احد . الا ترى ان كل واحد منهم مشغول باحزابه ؟.. اما ان في ذلك مخالفة للقرآن فليس في ذلك اي مخالفة . كله قرآن . اوه ، اني احس بالصهد . كل هذا لا يهمني . متى تكون لي انا ايضا عمامة بيضاء ؟ كلنا سنموت ذات يوم ، فيا رب اعطنا الجنة .. اللفظ يرتفع فجاة . ساقفز الى الربع الاخير من الحزب الاخير .. وسارفع صوتي الآن اكثر .. ها بعضهم يتوقف .. ساقول صدق الله العظيم واتوقف بدوري . لم يبق الا واحد .. احس بالبول .. ها هو ذا بدوره يقول صدق الله العظيم . قرانا الفاتحة جماعيا ، رفعنا ايدينا بالدعاء للميتة .. واحد يدعو والبقية تردد آمين . ختمت السلكة .

هبط على الغرفة سكون مفاجيء . دخل زوج الميتة وبيده نقود . اسرع من هب الى تسلم النقود كان اعرج . تعالى اللغط من جديد . مال خيرون على ابيه وهمس له بانه يريد ان يخرج . نهره ابوه بنظرة قاسية فعاد يهمس : « اريد ان ابول » . اذعن ابوه لطلبه فنهض واقفا وغادر الحجرة ولغطهم يلاحقه الى ان عبر الفناء ووجد نفسه وحيدا في الخارج . مشى بحذاء حائط وعندما بلغ نهايته انعطف مع الحائط الآخر ثم رفع جلبابه الى وسطه واخذ يبول على حجر بلذة . الى الامام منه كانت تقوم مجموعة من اشجار اللوز توشك رؤوسها ان تتلامس محشورة وسط صبار منتشر بكثافة . لمح من خلال الصبار صبيا صغيرا ينظر اليه وهو واقف تحت تينة . اجفل الصبي وهو يبصر خيرون يتقدم نحوه عبر الصبار واسرع باخفاء يده اليمنى وراء ظهره . صبي قذر ، فوق عينه اليسرى دمل ، تتولى من قمة راسه ضفيرة من الشعر . تراجع خطوة الى الخلف وتغضن وجهه آية على تهيئه للبكاء ، ولكن خيرون ابتسم له فبدا على الصبي نوع من الاطمئنان . وعندئذ استعاد يده من خلف ظهره وبسطها في وجه خيرون فبدت في وسط راحته الصغيرة تينة سوداء . تحسس خيرون التينة فوجدها ساخنة كما لو رفعت على التو من فوق النار . اشار الصبي الى اغصان التينة فوقهما وقال :

ـ تقدر تطلع ، اختي نفيسة تقدر .

ـ من نفيسة ؟

ـ اختي .

ـ وانت ولد من ؟

ـ أنا ...

سمع خيرون خشخشة خلفه فالتفت فراى طفلة حمراء الشعر تخرج من بين الصبار وهي تشد سروالها الى وسطها . صاح الصبي لما رآها ووقف بجانبها متشبثا بثوبها . تبادلت الصبية نظرة استطلاع

منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجقدار

مع خيرون ثم قالت له وهي تنظر الى زخارف الطاقية الموضوعة فوق راسه :

ـ جئت مع الناس ؟

ـ نعم . جئت مع أبي لحضور جنازة المراة التي ماتت هنا .

ـ انا بنت رجل المراة التي ماتت ، وهذا اخي . وام هذا هي التي ماتت .

قبل ان يتمكن خيرون من قول أي شيء رمى الصبي بالتينة التي في يده وسط الادغال وهو يقول :

ـ ماما ماتت وهي ما ماتت مماها علاش ؟.

نهرت نفيسة اخاها فعاد الى هدوئه . حاول خيرون ان يفهم شيئا ولكنه لم يفهم أي شيء . وربما فهمت البنت انه لم يفهم فجعلت تشرح له هذا الذي لم يفهمه حتى فهم . ولكنه بعد ان فهم لم يعرف ماذا يفعل . عندئذ جذبته البنت اليها قائلة :

ـ هل تلعب ؟

ـ العب ماذا ؟

ـ نلعب لعبة العروسة . سهلة . انا انعس على ظهري وانت فوقي ، ثم تنعس انت على ظهرك وانا فوقك .

تطلع خيرون فيما حوله بحذر وقال :

ـ اين ، هنا ؟

ـ نعم ، هنا . لا تخف . لن يرانا احد .

ولكن اخا البنت هتف في احتجاج :

ـ وانا ؟

ـ حتى انت ستلعب ، ولكن من بعد ، حتى نبقى وحدنا .

قالت البنت وهي تستلقي فوق محل من الارض مظلل . ثم رفعت ثوبها ، وهبطت سروالها الى ما تحت ركبتيها . واستلقى خيرون فوقها، واحس بلذة عذبة وهو يلمس فخذيها البيضاوين ، ومدت البنت اصابعها الى ما بين فخذيه ، وضمته اليها ، وفي تلك اللحظة جاءه صوت أبيه مخترقا اذنيه. انتصب واقفا مذعورا وفيما هو لا يزال يتلفت حواليه تكرر النداء . انطلق وسط الصبار يحط قدمه اينما كان حتى اوقفته قامة ابيه .

ـ اين كنت ؟ كنت افتش عنك لنرجع الى دارنا ..

اطرق برأسه الى الارض متحاشيا نظرات ابيه فرأى الحجر الذي سبق له ان بال فوقه .

ـ هيا .

وجد نفسه في الطريق المترب مرة اخرى .

ـ عمك لن يعود معنا ، سينتظر حتى يبرد الحال قليلا .

وعندئذ تذكر كيف انه تركهم في الغرفة يتصايحون وخرج ليبول .

ـ قسمت الفلوس واخذ كل واحد نصيبه . عشرون بسيطة للواحد ، انا وانت اربعون بسيطة . ولكن اياك ان تقول ذلك لامك ..

ـ لماذا ؟

ـ لانها تريد ان اشتري لها حزاما بينما انا سادفع هذه الفلوس فيما هو اهم . قل لها اذا سالتك انا لم اكن معهم حين وزعوا النقود ، وانا اعرف ماذا اقول بعد ...

الطريق لا يزال طويلا ، والشمس حارة .

ـ هناك رجل في (مراحة) اذا لم يمت هذه الليلة مات غدا .. استعد .

الآن فقط تيقن خيرون ان اباه لم يبصره . وشيئا فشيئا بدأ يستعيد تفاصيل اللعبة . يا لها من لعبة لذيذة . سيعلمها لابنة عمه وسيلعبها معها كلما سنحت له الفرصة . سيلعبها مع ابنة عمه دائما .. ولن يذهب مع ابيه الى اية جنازة اخرى .. وفكر خيرون بان هناك اشياء كثيرة لا يزال يجهلها ، ولكنه سيتعلمها جميعا ذات يوم .. وعندئذ ، اخذ حمار ينهق .

الرباط — **الامين الخمليشي**

أربع نطوالهرطبيعية

١ ـ التعرية

كان يقال ان ما تتركه الرياح
على الجبال والسهول من تغيرات
يحدث بعد فترة طويلة الزمان .
(انتهت العبارة)
تغير المكان
تغيرت معالم الحضارة
لم تترك اليوم على اشيائنا المريرة
حتى ولا اشارة
فالريح والعواصف المطيرة
لم تكن العواصف التي تهب في مشارف الجزيرة
تغير الشارع والبيوت والعمارة
أو تحرق الزهور في الحديقة
في فترة زمانها دقيقة .

***

٢ ـ درجات الحرارة

في نشرة الاخبار
يصرّح المذيع في الليل وفي النهار
ارتفعت (حرارة الاجواء)
دائرة الانواء في المطار
سجلت السبعين في « نيسان »
سجلت التسعين في الاغوار
وارتفعت (حرارة الدماء)
تصاعدت بخار ..

***

٣ ـ الشروق والغروب

يا ايها الانسان
يا ايها المطمور
كيوسف في جبه ، يعانق الاحزان
يبحث عن نافذة للنور
قميصه المبتل بالدماء والدموع
وانتم الذين تحلمون في الرجوع
سيقذف النهار بالدلاء
لكم ، وتخرجون للحياة والسناء

***

٤ ـ الزلزال

ستعلمون
ستعلمون ما يكون
اذا أصاب الارض مرة جنون .

بصرة ـ العراق — **محمد صالح عبد الرضا**